لقد شهدتـــا (٢)

بعــد صراع طويــل مع المرض .. مــات والد خليل قبــل أن يرى ولادة أول ابــن له . فولِد خليــل يتيم الأب ترعاه أمه المريضــة الضعيفة التي تسكن بيتاً طينياً صغيراً في أطراف مدينة حلب ، والتي كانت تقتات على دراهم قليلة تكســبها من خياطة الملابس البسيطة . وبسبب فقد الوالد ومرض الأم المبكر وانشــغالها بتوفير لقمة العيش لها ولولدها ، لم يكن لخليل من أهله من يتولى تربيته وتوجيهه أو ينهاه عن الشر ويدله على الخير وأهله . لقد نشــأ خليل وترعرع في بيئة تســتحل الســلب والنهب والقتــل ، تقطع الطريق وتســلب الناس وتنهب المال والمواشــي ، بيئة لا مكان للآمنين فيها ، بيئة علمت خليل وهو ابن ثماني ســنوات أن يسرق بيــض جيرانه ليعيــش . المهم يا خليل أن تطعم نفســك وأمك المريضة مهما كانت الوســيلة . لم تكن أمه تســأله عن هذا البيض القليل ، لأنه قال لها مرة : إنه من عطايا الناس وعطفهم عليه. فصدقته ولم تتخيل أنَّ ابنها قد أصبح من اللصوص الصغار الذي يسرق جيرانه .

---

(٢) المصدر : كتاب تدابير القدر لمحمود شيت خطاب .. بتصرف .

obeikandl.com

ولما بلغ خليل العاشرة من عمره ، توفيت أمه بعد أن أنهكها المرض وأضناها العمل والسهر ، فتركته وحيداً في هذه الدنيا في ذلك البيت الصغير . وبسرعة أخذ الصغير يبحث عن عمل له يستطيع به إطعام نفسه . فعمل بأجر زهيد جداً في أحد المقاهي الشعبية في الحي القريب من بيته ، فكان عمله نادلاً يحضر الشاي والقهوة والماء لزبائن المقهى . كان المقهى متواضعاً لا يقعد فيه إلا العاطلون وأصحاب الحرف البسيطة وبعض عابري السبيل الذين يأتون من هنا وهناك . كما كان ذلك المقهى القديم النائي والبعيد عن رجال الشرطة ملتقى مفضلاً لبعض اللصوص وقطاع الطريق . فكان خليل ينصت بإعجاب شديد إلى أحاديث هؤلاء المجرمين وهم يضفون على أعمالهم سمات البطولة وعلى أنفسهم سمات الرجال العظماء .. كأنهم خالدون في الدنيا ليس لحياتهم نهاية ، وليس على أعمالهم حساب أو عقاب .

تعلم خليل من أحاديث اللصوص قساوة القلب وموت المشاعر وعدم الخوف عند حال النهب والسلب من الناس . فاللص الناجح لا بدَّ أن يكون جسوراً ، لا يدمع ، ولا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلاً .. هذا ما يردده اللصوص ، وهذا ما تعلمه منهم . فأصبح خليل لا يقنع بسرقة

بيضات دجاج الجيران ، بل أصبح يسرق الدجاج نفسه . لكن الدجاج ثمنه زهيد لا يستحق كل هذه المغامرة وهذا العناء ، لذا لم يَطُل الوقت حتى صار يسرق الخراف والأبقار الصغيرة من المراعي القريبة من قريته والقرى المجاورة . لقد كبرت السرقات والطموحات الشريرة ، وأصبحت السرقة عند ابن الخامسة عشر عادةً يوميةً تكرر .

ترك خليل عمله في المقهى ليصبح متفرغاً لعمله الخاص . لقد أصبح أحد اللصوص المحترفين الذي يراقب المنازل الخالية صباحاً ومساءً ، ليدخلها باحتراف عن طريق السطوح أو الشبابيك ليسرق كل ما خفَّ حمله من مال أو ذهب أو متاع ثمين . وحين بلغ عشرين عاماً من عمره ، أصبح مؤهلاً ليكون عضواً عاملاً فاعلاً في عصابة من قطاع الطرق الكبار . رحب رئيس العصابة بهذا الفتى الذي مرَّ بتجارب عملية في السرقة ، بدأت رخيصة الثمن سهلة التنفيذ ، ثم تطورت فأصبحت باهظة الثمن معقدة التنفيذ . لقد أصبح خليل واحداً من هذه العصابة يتكلم بكلامهم ويلبس لبسهم ويخطط ويسرق معهم .. لقد أصبح لصاً محترفاً في السرقة وقطع الطريق .

مضت السنون سريعة ، وخليل يرتقي فيها سلم مناصب العصابة ، حتى صار رئيساً للعصابة . لقد كان الرئيس الجديد للعصابة متجبراً قاسياً يسرق ويسلب ويقتل ، وينفذ بدم بارد كل جرائمه وشروره وأطماعه . حتى أضحى يعتدي على حصص أعوانه من السرقة والنهب ، فلا يرضى إلا بنصيب الأسد من هذه الحصص . لقد جمع من المال الحرام مبلغاً ضخماً جعله من أكثر أهل حلب ثراءً ومالاً .

ظنَّ الناس أن خليلاً كسب ثروته من مكتب العقار الذي يملكه في سوق حلب ، فلقد عمد خليل لفتح هذا الدكان ليكون له ستاراً يخفي وراءه جرائمه وكسبه الحرام . وكان أيضاً وحتى يُبعد كل الشبهات عنه ، يفتح أبواب منزله بعد صلاة الجمعة للفقراء والمساكين يأكلون فيه أطيب الطعام وأحلاه ، فأطلق عليه الناس الحجي خليل لكرمه ورحمته بالفقراء والأرامل والأيتام . ويبدو أنه قد عرف مبكراً ما يقوم به رجال المافيا من التستر خلف المناصب والهيئات والمكاتب من أجل الكسب الحرام وبناء القصور وغسيل الأموال وضرب الخصوم . لقد أصبح خليل شخصية كبيرة ذات وجاهة ومنزلة .

وفي أحد الأيام .. علم خليل من أفراد عصابته الكبيرة أنَّ أحد كبار تجار الأغنام والمواشي الموصليين (من مدينة الموصل شمال العراق) قد قدم حلب ومعه عدد كثير من الأغنام والأبقار والإبل يريد عرضها للبيع في سوق المواشي ، وأنَّ هذا التاجر الموصلي ينام في أحد فنادق حلب القريبة من هذه السوق . فأوكل خليل أمر مراقبة تحركات التاجر إلى أحد أفراد عصابته لينقل له ساعة فساعة أخبار التاجر الموصلي الغريب كلها. إنَّ خليلاً لم يأمر أفراد عصابته بسلب مواشي التاجر الموصلي وهي في طريقها من الموصل إلى حلب ، لأن سرقة المال بعد بيع المواشي أسهل بكثير وأقل خطورة على الرئيس وعصابته من سرقة قطيع الماشية . إنَّ سرقة هذا العدد الكبير من المواشي قد يفضح أمر العصابة سريعاً ، فمن الصعب عليهم إيجاد مكان مناسب لكل هذا القطيع أو إطعامه ، ومن الصعب كذلك إبعاده عن جميع أنظار الناس والشرطة وأعوانهم .. لذلك اختارت العصابة أن تؤجل تنفيذ عملية السلب بعد بيع المواشي .. حين يقبض التاجر ماله نقداً .

أصبح الصباح .. فيمم التاجر الموصلي وجهه شطر سوق المواشي في حلب الشهباء ، وعرض قطعان الماشية على تجار الجملة ، فيسَّر الله

لــه بيعها جميعها قبيل أذان المغرب ، وقبــض ثمنها نقداً . حمل التاجر ماله معه وعاد ورعيانه إلى حيث مستقره في الفندق القريب من السوق . وفي صباح اليوم التالي .. اســتعد التاجر الموصلي إلى الســفر إلى أهله في الموصــل ، فوضــع نقــوده في خُرْج (كيــس من القمــاش) على ظهر بغلة يمتطيها ، وســار إلى الموصل وخلفه الرعاة الذين اســتأجرهم كي يحرسون ماشيته ويحمونه من شر الطريق ولصوصه .

وحــين وصل التاجر ومن معه من الرعاة إلى بطن الوادي الذي اتخذته العصابــة كميناً لها ، صاح أفراد العصابــة جميعاً وهم ينحدرون إلى بطن الوادي لســلب مال التاجر ، فجفلت بغلة التاجر وســقط أرضاً مصدوماً من هول المفاجئة .

لم يفــق التاجر من صدمته إلا ورئيس العصابة خليل قد ســلب المال من ظهر البغلة وأتاه ماشياً متبختراً . سلَّ خليل خنجره وصعد على صدر التاجر يســتعد لتســديد أول طعناته ، فبدأ التاجر يصرخ في بطن الوادي مســتنجداً فلا مجيب ، ويستغيث ولا مغيث . هنا توسل التاجر الموصلي بخليــل بكلمات متقطعة على أن يبقي على حياتــه لقاء تنازله عن ماله

كلــه ، فلقــاء الأهل والولد أفديه بهذا المال كله . لكن خليلاً اعتاد الســلب والقتــل ، فأصبــح القلب صخراً قاســياً لا يرق ولا يحــنُّ ولا يرحم الدموع والتوسلات ، فبدأ بتوجيه أول طعناته إلى أحشاء التاجر .. التاجر الذي ظل يتلفــت يمنة ويســره لعله يجد من ينقذه من بين يدي هــذا المجرم القاتل . لــم يجد التاجر الموصلي غير حمامتين حطتا على أغصان تعلوه لشــجرة قريبة منــه ، فقال للحمامتين وهو يلفظ أنفاســه الأخيرة والقاتل يكمل طعناته : أيتها الحمامتان اشــهدا . فســمع خليل ما قاله التاجر ، فارتفع صوته بالضحك عالياً مردداً قول التاجر : أيتها الحمامتان اشــهدا . أخذ يكررها ويضحك بصوت مرتفع وكأنه ســمع نكتة طريفة تستدر الضحك والابتسام . مضت العصابة ومضى رئيسها تاركين التاجر الموصلي ورعيانه العشرة جثث هامدة يسبحون بدمائهم في باطن ذلك الوادي الموحش .

انتظــر أولاد التاجر في الموصل عودة أبيهم مــن رحلته التجارية تلك ، فطال انتظارهم لكن دون جدوى أو بشارة لمقدمه أو حتى رسالة صغيرة منه تشــرح ســبب تأخره . زاد قلق أهله عليه ، فقصد ولده الأكبر مدينة حلب ، فقيــل لــه : إن والده نزل الفندق الفلاني وباع أغنامه ومواشــيه في اليوم الفلاني ، ثم وجد مقتولاً في اليوم الذي تلا بيعه لقطعانه ، ودفن في مقبرة

الغرباء ، وإنَّ قاتله وسالب أمواله مجهول . فدق ابن التاجر باب والي حلب ، وقاضيهـا ، وأبواب من يعرف من الناس ومن لا يعرف أيضاً ، فكان جواب كل مـن طـرق بابه : القاتل السـارق مجهول الهوية . فبـذل هناك جهوداً مضنية ليعرف شيئاً عن سر مقتل أبيه ، ولكن جهوده ذهبت أدراج الرياح . فعاد الفتى إلى الموصل ، فطرق باب الوالي وقاضيها يسـألهما العون ، لعلَّ مكانتهما ووجاهتهما تستحث والي حلب وقاضيها على فتح التحقيق من جديد لمعرفة القاتل وعقابه . فأُرسـلت الكتب الرسمية بين المدينتين ذهاباً وإياباً ، أياماً وأسـابيع ، لكن الجواب النهائي كان : القاتل السالب مجهول الهوية . فانتهت قضية التاجر القتيل إلى باب مسدود ، فتقبلَ أولاده وأهله التعازي ، وأوكلوا قضيته إلى الله .

وتعاقبت السنون ، وتبدل ولاة حلب وقضاتها مرات ومرات ، ونسى الناس قصة الاغتيال والسلب ، ونسوا القتيل السليب ، ولكن رجلاً واحداً لم ينس القصة ، وهو القاتل السـالب خليل . فظل يذكر جريمته النكراء كلما رأى الحمام مرفرفاً أو حاطاً على شـجر ، أو كلما رأى حمامتين تتناجيان فوق شـجرة من الأشجار . كان دوماً ما يتخيل شبح القتيل أمامه وهو ينادي : « أيتها الحمامتان اشهدا » .

وفي يوم من الأيام ، لبّى خليل دعوة من دعوات العشاء على مائدة أحد وجهاء البلد ، أقامها بمناسبة عرس أحد أولاده . حضر الحفل مدعوون من طبقات شتى ، فحضره القضاة والأطباء والمعلمون والتجار وأرباب الحرف ، وحتى الأميين الفقراء . مدت الموائد العامرة بأصناف الأطعمة الشهية الفاخرة التي تحلق حولها المدعوون ، كل حلقة من الناس حول مائدة من الموائد ، وقعد خليل على إحدى هذه الموائد .. موائد أهل حلب التي تضم لحم الضأن والدجاج والسمك وأنواع مختلفة من ألذ الطبخات وأشهاها .

نظر خليل إلى أطباق الطعام ، فوجد أمامه مباشرة طبقاً فيه حمامتان . حملق بالحمامتين المحمرتين طويلاً ، وتذكر جريمة التاجر الموصلي عندما استنجد بالحمامتين لتشهدا له ، فأطرق خليل رأسه يستعيد تفاصيل تلك القصة بكل أبعادها . ثم قهقه خليل قهقهة لا إرادية يستعيد بها ضحكاته العالية الساخرة وهو يُجهز على القتيل في بطن الوادي الكبير تحت الشجرة ، وكأنه نَسِيَ الوليمة والمدعوين وعاد بذاكرته إلى الماضي البعيد ، فهو حاضر كالغائب أو غائب كالحاضر . لقد لفت صمته الطويل ثم قهقهته أنظار من حوله من المدعوين وأسماعهم ، ولا سيما ضحكاته العالية التي لا مناسبة لها ، فليس هناك

حديث أو عمل يستثير الضحك ، كما أنه لم يكن هناك ما يدعو للوجوم والصمت الطويل .

فبعد وجومه الطويل أمام الحمامتين وضحكاته العالية الصاخبة ، لاحقته الأنظار المتعجبة جميعاً تطلب تفسيراً لسلوكه العجيب . وبشكل لا إرادي تنهد خليل طويلاً ، ثم انطلق يُحدِّث من حوله قصة قتله للتاجر الموصلي .. وكأن قوة خفية قاهرة تُحرِّك لسانه تحريكاً جبرياً وهو لا يشعر . فلم يترك خليل شاردة ولا واردة من قصته إلا وأفشاها للحاضرين .

لم يكد يتم حديثه إلا وشعر بأن عبئاً قد أزاحه عن صدره ، لكن حديثه أذهل الحاضرين فانتقل ذهولهم إليه بالعدوى ، فثاب إلى رشده وندم أشد الندم على إفشاء سرِّه .. لكن بعد فوات الأوان . لقد انطلق لسانه وكأنه لا يقدر على ضبطه ، أو كأن قوة قاهرة لا سبيل لصدها أجبرت لسانه على الحركة والكلام .

أصبحت القصة بعد ساعة من إذاعتها حديث المجالس في حلب كلها

، فسمعها الوالي كما سمعها غيره من الناس . فأمر والي حلب بتوقيف المتهم على ذمة التحقيق ، وأمر قائد الشرطة أن يبدأ التحقيق الرسمي . فاستقدم قائد الشرطة الشهود الذين سمعوا القصة من المتهم مباشرة والذين جالسوه على مائدة العشاء نفسها ، وسجل أقوالهم جميعاً . ثم استدعى قائد الشرطة المتهم وأطلعه على أقوال الشهود ، فانهار المتهم واعترف بجريمته النكراء . فأحيلت أوراق التحقيق إلى قاضي المدينة الذي حكم على خليل بالشنق حتى الموت ، وبعد صدور هذا الحكم ، قال والي المدينة : لقد شهدتا . وقال قاضي المدينة : لقد شهدتا . وقال قائد الشرطة : لقد شهدتا . وقال الناس : لقد شهدتا .

وقبل تنفيذ حكم الإعدام بليلة ، جاءت زوجة خليل وأولاده إليه في سجنه ، فسألته زوجته : كيف أبحت بسرك المكنون أمام الناس جميعاً وأنت الذي استطعت أن تحافظ عليه مخفياً في صدرك طوال سنين كثيرة . لم يكن هذا سؤال زوجته فقط .. بل لقد كان سؤال أولاده وأقربائه وكل من صادف من الناس . وكان جواب خليل الذي لا يتبدل : إنَّ إرادة قاهرة شلَّت إرادتي وأجبرتني على الكلام .

وفي الفجر .. اقتيد القاتل السالب إلى ساحة الإعدام لينفذ فيه حكم

الإعدام شـنقاً حتـى الموت . فهمهم بصوت خافت حـين وُضع الحبل حول عنقه قائلاً : لم أتكلم بلساني بل بلسان الحمامتين اللتين كانتا في الطبق المسـتقر أمامي في دعوة العشاء . وما أن انتهى من كلامه هذا ، حتى تدلى جسم القاتل على أخشـاب المشنقة ، فهتفت حشود الناس فرحة حول جثة القاتل الشرير الذي تخلَّص مجتمعهم منه .

وفي هـذه اللحظات المؤثرة ، وبعد أن أُنزلت الجثة على الأرض .. حامت أسـراب من الحمام حول جثة المجرم المشـنوق ، كاد بعضها يلامس رأسـه ، وكأن الحمـام يريد أن يأكل منه . وفجأة .. انقلب هتاف الحشـود الضخمة إلى تهليل وتكبير ، فقد استقرت حمامتان فوق رأس المصلوب لا تتحركان . فهدرت الحشود بصوت واحد : لقد شهدتا .

عجزت عدالة الأرض في اكتشـاف سـر القتيل السـليب ، فبقى القاتل السـالب طليقاً سـنين طويلة يحمل معه السر الدفين وتفاصيل الجريمة البشـعة . لكن عدالة السماء كانت للقاتل السالب بالمرصاد ، فكشفت سرَّه وساقته إلى القضاء . لقد شهدت الحمامتان وساقته شهادتهما إلى مصيره

المحتوم .. أمهله القدر ساعة ، ولكنه لم يهمله إلى قيام الساعة .

obeikandl.com

سمو الهمة

- يُروى عن صلاح الدين الأيوبي – رحمه الله – أنه كان يحمل صناديق مقفلة في أيام جهاده ، فكان يحرص عليها أعظم الحرص ويرعاها أعظم رعاية . فظنَّ الذين من حوله من المقربين إليه أنها ملئت ذهباً وجواهر . لكن بعد وفاته فتحت تلك الصناديق ، وإذا بها تحوي وصية وكفناً وكمية من التراب . فتحت الوصية وكان مما جاء فيها . . « أكفن بهذا الكفن الذي تعطر بماء زمزم وزار الكعبة المشرفة ومنبر النبي صلى الله عليه وسلم ، أما التراب فهو من مخلفات الجهاد ، اصنعوا لي منه طابوقاً يوضع تحت رأسي في قبري » . فقيل إنه صُنع من هذا التراب ١٢ طابوقة كبيرة تستقر اليوم تحت رأس صلاح الدين . لقد حرص بعد عودته من كل معركة يخوضها جهاداً في سبيل الله ، أن يجمع التراب المتكاثف فوق وجهه وثيابه ، ويضعه في صندوق من صناديقه السرية . والسؤال . . كم عدد المعارك التي خاضها جهاداً لإعلاء كلمة الله حتى يجمع كل هذه الكمية من التراب التي صنعت له ١٢ طابوقة ؟ يقول عليه الصلاة والسلام « قيام ساعة في الصف للقتال في سبيل الله ، خير من قيام ستين سنة » رواه أحمد والترمذي وقال الألباني صحيح .

- وهذا الصحابي عبدالله بن حذافه السهمي – رضي الله عنه – قد وقع أسيراً عند الروم ، فيخاطبه القيصر قائلاً : أعرض عليك أن تتنصر ، فان فعلت خليت سبيلك وأكرمت مثواك . قال عبدالله : إن الموت لأحب إلي ألف مرة مما تدعوني إليه . فقال قيصر : إن وافقت قاسمتك سلطاني . قال عبدالله : والله لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما ملكته العرب على أن أرجع عن دين محمد طرفة عين ما فعلت . قال قيصر : إذا أقتلك . قال عبدالله : أنت وما تريد . ثم أمر به فصلب ، وقال لقناصته بالرومية : ارموه قريباً من يديه . فأخذوا يرمونه والقيصر يعرض عليه التنصر فيأبى ، فقال : ارموه قريبا من رجليه . فما زال يعرض عليه مفارقة دينه ، وعبدالله بن حذافه مع كل ذلك يأبى . عندها . . دعا القيصر بقدور عظيمة ، فصُب بها الزيت ورفعت على النار حتى غلت ، ثم دعا بأسيرين من المسلمين ، فأمر بأحدهما أن يلقى فيها فألقي ، فاذا لحمه يتقتت وإذا عظامه تبدو عارية . فالتفت القيصر إلى عبدالله ودعاه إلى النصرانية ، فامتنع . فلما يئس منه ، أمر أن يُلقى في القدر . فلما ذهب به دمعت عيناه ، فقال رجال لقيصر : إنه يبكي . فظنَّ القيصر أنه جزع من الموت ، وقال ردوه إلي . فلما مثل بين يديه ، عرض عليه النصرانية ، فأباها وامتنع عنها كما فعل من قبل ! فقال قيصر : ويحك ، فما الذي أبكاك إذن ؟ قال عبدالله : أبكاني أني قلت في نفسي : تُلقى يا عبدالله الآن في القدر فتذهب نفسك من مرة واحدة ، وقد كنت أشتهي أن يكون لي بعدد ما في جسدي من شعرٍ أنفسٌ فتلقى كلها في هذا القدر في سبيل الله .

كانوا جبالاً في الجبال وربما ... ساروا على موج البحار بحارا
لم تنس افريقيا ولا صحراؤها ... سجداتهم والأرض تقذف نارا
بمآذن الافرنج كان أذانهم ... قبل الكتائب يفتح الأمصارا
يعلو جهاراً لا إله سوى الذي ... خلق الوجود وقدر الأقدارا